Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 6, Dec. 2016

Published on Web 01/12/2016

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة,ليبيا، المجلد الثاني ـ العدد السادس، ديسمبر 2016م

مفهوم الشعر عند النقاد اللغويين (ابن جني أنموذجًا)

د. عبدالله عبدالرحمن الغويل*

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يعتبر القرن الرابع الهجري من أزهى عصور علوم العربية؛ إذ تميزت فيه كثير من هذه العلوم التي كانت مختلطة، فبانت معالمها ومفرداتها، ومنها النقد الذي تحوّل على أيدي نقاد كبار من نقد فني جزئي خال من التعليل؛ إلى نقد منهجي يتناول النصوص باستقصاء، ومن هؤلاء النقاد؛ ابن جني، الذي امتلك عقلية فذّة جعلته من كبار العلماء، فتناول الباحثون مؤلفاته اقتباسا ودراسة، قديما وحديثا، وكان أكثر هذه الدراسات حول الجانب الذي برز فيه ابن جني، وهو جانب اللغة، أما جانب النقد والبلاغة عنده فلم يحظَ بما حظيَ به جانب اللغة، وقد اطلعت على عدد من الدراسات التي تناولت جانب النقد والبلاغة عند ابن جني، لعل أهمها: دراسة محمد مندور، في كتابه: النقد المنهجي عند العرب، ودراسة إحسان عباس، في كتابه: تاريخ النقد الأدبي.

وقد حاولت أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصارا لما قرأته في هذه المصادر عن جهود ابن جني النقدية، متناولا منهج ابن جني النقدي والردود عليه، ثم بيان أهم القضايا النقدية عند ابن جني.

والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدارسين، وأن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والنجاح، فإنه نعم المولى ونعم النصير.(الباحث)

* قسم اللغة العربية– كلية التربية – جامعة مصراتة.

تمهيد:

تعددت البيئات النقدية التي تناولها الباحثون، فنجد منها بيئة اللغويين، وبيئة المتكلمين، وبيئة الأدباء، وغير ذلك، وابن جني هو من كبار اللغويين؛ فيعد بذلك من بيئة النقاد اللغويين، التي بدأ ظهورها في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، ابتداء بأبي عمرو بن العلاء، ثم الأصمعي وابن سلاّم، حتى نصل إلى أبي بكر بن الأنباري في القرن الرابع الهجري، وأبي علي الفارسي، وابن جني، وغيرهم من اللغويين الذين أثروا الحركة النقدية، وكانوا من الأئمة فيها. يقول قاسم مومني: "ومن المحقق أن اللغويين هم أصحاب الملاحظات الأولى التي مهدت الطريق أمام غيرهم"(1).

وقد يلتقي اللغوي مع الناقد في تحقق شرط الثقافة الواسعة، ويفترقان في شرط الموهبة التي لابدّ من توافرها في الناقد، وهذه الموهبة نراها واضحة عند ابن جني في نقده.

لقد برز ابن جني ناقداً فذاً من خلال شروحه لشعر المتنبي، ومن خلال كتبه الأخرى، ككتاب الخصائص، فأثار حركة نقدية كبيرة تتمثل فيما حوته هذه المؤلفات، وفيما ترتب عليها من ردود، من بين مؤيد ومدافع عنه، أو مستدرك عليه ومعارض له، أو من آثر العدل في نقده كما فعل القاضي الجرجاني في وساطته.

ولعل أهم العوامل التي أسهمت في ظهور ملامح ابن جني النقدية هي توفر شروط الناقد فيه، والمتمثلة في سلامة الذوق عنده، وسعة اطلاعه، وتمرسه في هذا المجال من خلال الدخول في الخصومة حول المتنبي.

وسأحاول من خلال هذه الورقات أن أظهر أهم آرائه النقدية، التي طغت عليها شهرته في النحو والصرف، فنجد كتب النقد تفرد الأبواب لأمثال: ابن سلاّم والآمدي وقدامة بن جعفر، وغيرهم من مشاهير النقد، ولا تفعل ذلك مع ابن جني، مع أنه لا يقل أهمية في نقده عن أي واحد منهم.

أولاً: ابن جني، ومنهجه النقدي، والردود عليه:

1- ابن جني وآثاره العلمية:

هو عثمان بن جني، أبو الفتح الموصلي، النحوي، اللغوي، ولد قبل عام 330هـ، وكانت وفاته يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر عام 392هـ[2].

أثرى ابن جني المكتبة العربية بعدد كبير من المؤلفات، أوصلها محققا كتابه المبهج إلى السبعين مؤلفا[3]، وهذه الآثار منها المطبوع ، ومنها المخطوط، ومنها المفقود الذي لم يعرف إلا من ذكر بعض المصادر القديمة، أو كتبه الموجودة له، وكلها قيّمة تدل على عظم مؤلفها، وعلو كعبه في العلم، يقول الشيخ محمد الطنطاوي: "ومؤلفاته تبهر الأفكار فإنها مع كثرتها غاية في الإتقان"[4].

ومن آثار ابن جني . فضلا عن كتبه . شعره، وإن كان ما وصلنا منه قليلا، إما لأنه كان مقلاّ، أو لأنه كتب الشعر في مرحلة معينة ثم انصرف عنه بعد أن تعمق في علوم اللغة[5]. وقد نقل رضا رجب[6] أن القدماء نظروا إلى شعر ابن جني نظرتين مختلفتين، فقد قال ابن الأثير وابن ماكولا: وله شعر بارد، بينما قال آخرون بما يدل على إعجابهم به، كالخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وصاحب دمية القصر، وابن الأنباري، وابن خلكان. وأغلب شعره أورده ياقوت الحموي في ترجمته[7]، منه قوله:

فإن أُصبِح بلا نسَبِ   فعِلمِي في الورَى نَسَبِي
على أنّي أؤولُ إلى   قرومٍ سادةٍ نُجُبِ
قياصرة إذا نطَقُوا   أرمَّ الدهرُ ذو الخطبِ
أُولاَكَ دعا النبيُّ لهم   كفَى شرفًا دعاءُ نَبِي

وله مرثية طويلة في المتنبي أولها:

غاضَ القَريضُ وأَودتْ نَضرَةَ الأَدَبِ   وصَوّحتْ بَعدَ ريٍّ دَوحَةُ الكُتُبِ

وقال عنه الثعالبي: "كان الشعر أقل خلاله لعظيم قدره وارتفاع حاله"[8].

2- رأي العلماء فيه.

حظي ابن جني بالمدح والثناء؛ لعظم المكانة التي تبوّأها بسبب ما ترك من تراث لغوي وأدبي، يشهد له بالنبوغ والعلم الغزير، والعقلية الفذة، مما جعله مميزا بين العلماء، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

قول العكبري: "وجمعت كتابي هذا من أقاويل شراحه الأعلام، معتمدا على قول إمام القول المقدم فيه، الموضح لمعانيه، المقدم في علم البيان، أبي الفتح عثمان"[(9)].

ويقول صاحب وفيات الأعيان: "أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المشهور كان إماما في العربية"[(10)].

ويقول عنه الثعالبي: "هو القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرياسة في الأدب"[(11)]. وقال عنه السيوطي: "من أحدق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف"[(12)].

ولم يكن الثناء عليه مقصورا على القدامى، بل نجده كذلك كثيرا عند المحدثين، يقول محمد مندور: "وكانت لأقوال ابن جني أكبر الأثر على اللاحقين إلى يومنا هذا"[(13)].

وفيما يخص النقد يكفينا ما قاله فيه المتنبي الذي خبر ابن جني أعظم خبرة، يقول: "إن ابن جني رجل لا يعرف قدره كثير من الناس"، ويقول: "إن ابن جني أعلم بشعري مني"، وكان إذا سئل في مسألة غامضة في شعره أحال السائل على ابن جني، وقد سئل مرة عن معنى بيت له فقال: " لو كان صديقنا أبو الفتح حاضرا لفسره"[(14)].

3- منهج ابن جني النقدي:

كان لطبقة اللغويين والنحاة أثر كبير في حركة النقد وخاصة في أولى مراحله، وابن جني هو أحد هؤلاء اللغويين النحاة، الذين اهتموا اهتماما كبيرا بضرورة سلامة العمل الأدبي من الخطأ واللحن، وأن يطابق قواعد اللغة، وهذا النوع من النقد نجده

كثيراً عنده خاصة في كتابه: الفَسْر في شرح ديوان المتنبي، فالسمة الغالبة على هذا الشرح هي اهتمامه بمسائل اللغة، حتى صار طالب البيت الواحد يُفني عدة صفحات في اختلاف مذاهب النحاة، قبل إدراك طلبته[15]، وقد يغفل بسبب ذلك عن شرح اللفظ والمعنى.

ونظرا لاهتمام ابن جني باللغة ووضوح المعنى، فقد ابتعد في كثير من الأحيان عن إبراز الجوانب الجمالية والفنية وسبر أغوارها في شعر المتنبي، ولكنه في أحيان أخرى . ولأنه يجمع بين اللغة والأدب وكثير من الفنون . نراه يحكم على الشعر بما فيه من جمال الصنعة، واستواء الأسلوب.

ومن مظاهر التزامه بالنقد الفني، أنه كان يصدر أحكامه النقدية على الشعراء بعيدا عن أي اعتبارات أخرى غير فنية، حتى ولو كانت دينية، يقول: "ليست الآراء والاعتقادات في الدين مما يقدح في جودة الشعر ورداءته؛ لأن كلا منفرد عن صاحبه"[16].

وتظهر آراء ابن جني النقدية مبثوثة في كثير من مؤلفاته، من خلال تناوله لشعر صديقه المتنبي، وشرح ديوانه، فتعرض للقضايا النقدية، قديمها وحديثها، وأعمل معرفته باللغة والنحو؛ ليتغلب على صعوبتين عند المتنبي، إحداهما: تعسّفٌ في بعض ألفاظه، خرج بها عن قواعد الإعراب، والأخرى: عمق في معانيه، يتطلب إعمال الفكر، وطول البحث؛ لأنه شاعر يخترع المعاني، ويتغلغل فيها ويستوفيها[17].

وقد استطاع ابن جني أن يحقق كثيرا مما رسمه لنفسه في هذا النقد، وأن يزودنا بشواهد كثيرة من أدب السابقين له؛ ليكون دليلا على ما ذهب إليه في المسائل المختلفة، بعيدا عن التعصب للقديم، أو مذهب من المذاهب، فالموضوعية سمة بارزة في مواقف ابن جني النقدية.

4- الردود على ابن جني.

أثار ابن جني بنقده المبثوث في كتبه، وخاصة في شرحيه . الكبير والصغير . لديوانالمتنبي، ثورة نقدية في حياته ومن بعد، وربما لا أكون مبالغا إذا قلت: إلى الآن، وإلى ما شاء الله، ويذكر إحسان عباس[18] أن أكثر الذين تناولوا هذا الشرح وقفوا عند النقاط الضعيفة فيه، كلجوء ابن جني إلى الاعتذار عن المتنبي في بعض المآخذ، وهجوم خاطره على أشياء تنأى به عن المعنى المقصود في السياق... ولذلك كثرت الردود على شرحه، فأخذوا عليه انصرافه عن إدراك بعض المعاني، وإيراده مسائل نحوية يستهلك فيها جهده، ويغفل عن شرح اللفظ والمعنى.

يقول إحسان عباس: "وعلى الرغم من الاجتهادات الطيبة التي توصل إليها أحيانا فإنه على وجه العموم لم يكن ناقدا، ولهذا تورط في أحكام كان من السهل تزييفها أو رفضها"[19]. وقد ذكر إحسان عباس مجموعة من النقاد مع كتبهم التي ألفوها في الرد على شرح ابن جني ونقده، منهم: الربعي، تلميذ المتنبي في شيراز، وكتابه: التنبيه على خطأ ابن جني، وللتوحيدي كتاب عنوانه: الرد على ابن جني في شعر المتنبي، ولابن فورجة كتابان: التجنّي على ابن جني، والفتح على أبي الفتح، وللواحدي في شرحه لديوان المتنبي ردود على ابن جني، وكذلك الوحيد البغدادي الذي شنّ على ابن جني حربا شديدة، أخرجت الوحيد في أحيان كثيرة عن طوره، وعن أناة الناقد الموضوعي، على رأي إحسان عباس[20].

ومنهم أبو القاسم الأصفهاني، صاحب كتاب: الواضح في مشكلات شعر المتنبي، حيث ناقش فيه بعض ما فسر به ابن جني أقوال المتنبي، متهما إياه أحيانا بأنه لم يوضح معنى ما أراد الشاعر، بل زاده غموضا[21].

ويذكر محمد مندور[22] أمثلة لطريقة فهم ابن جني لمعاني المتنبي، وردّ خصوم المتنبي عليها، الذين اتهموا ابن جني بعدم فهمه لمعاني شعر المتنبي، وأن

شرحه للديوان مثقل بالشواهد التي يأخذها من الشعر القديم، للتدليل على المسائل اللغوية والنحوية التي يثيرها، حتى إذا وصل إلى فهم معاني المتنبي نفسه لم يوفق، وذكر مندور قول الواحدي: "وأما ابن جني فإنه من الكبار في صنعة الإعراب والتصريف، والمحسنين في كل واحد منها بالتصنيف، غير أنه إذا تكلم في المعاني تبلَّد حماره، ولجّ به عثاره"(23). ثم ذكر كلام ابن الأثير معقبا على شرح ابن جني لقول المتنبي:

كُلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلامَتُهُ   إلَّا جَرِيحًا دَهَتْهُ عَيْنَاهَا
تَبُلُّ خَدّيّ كُلّمَا ابتَسَمَتْ   مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا

بقوله: "وما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره، حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره، وإذا كان هذا القول قول إمام من أئمة اللغة العربية، تشدّ إليه الرِّحال، فما يقال في غيره؟ لكن فن الفصاحة والبلاغة، غير فن النحو والإعراب"(24).

ونجد محمد مندور ينتصر لابن جني بعد ذلك بقوله: "ولكننا بالرجوع إلى شرح ابن جني نفسه نجد أن هذين الرجلين قد أسرفا في تنقص ابن جني ... وإن يكن في شروح ابن جني عيب فهو في الغالب تلمسه للمعاني البعيدة ... وأما اتهامه بالخطأ أو السخف، وتبلد حماره... فتجنّي على ابن جني كما قالوا"، ثم يختم محمد مندور هذه المسألة بقوله: "ولكن ذلك لا يمنع من أن يظل هذا النحوي أهم مصدر لفهم شعر المتنبي"(25).

ثانيًا: أهم القضايا النقدية عند ابن جني:

تناول ابن جني كثيرا من القضايا النقدية، المعروفة عند العرب منذ ظهور بدايات النقد، وحتى عصره، الذي شهد تطورا كبيرا في مختلف العلوم، ومنها النقد، ونجد أكثر آراء ابن جني النقدية في شرحه لديوان المتنبي، وكذلك في كتابه الخصائص، ومن أهم هذه القضايا النقدية ما يلي:

1- القدم والحداثة:

تعد قضية القديم والحديث من القضايا التي شغلت النقاد في الأدب العربي قديما وحديثا، وقد كان ابن جني مطلعا على كثير مما قيل في هذه القضية، وكان يميل إلى ذم التعصب للقديم، ويدافع عن الشاعر المحدث. يقول: "وما لهذا الفاضل عيب...إلا أنه متأخر محدث، وهل هذا لو عقلوا إلا فضيلة له"[26].

وكثيرا ما يظهر ابن جني دفاعه عن الشعراء المحدثين، فنراه – مثلا – في معرض حديثه عن الضرورات الشعرية، يرفض ما ذهب إليه بعض النقاد، من قبولهم الضرورة الشعرية من القدماء، ورفضها من المحدثين، بدعاوى منها: أن القدماء كانوا يقولون الشعر ارتجالا، مفنِّدا رأيهم هذا، بأن القدماء لم يكن كل شعرهم مرتجلا، فهناك حوليات زهير بن أبي سلمى، وغيره من الشعراء المنقحين لشعرهم، يقول: "ومثل هذا في أشعارهم الدالة على الاهتمام بها، والتعب في إحكامها كثير معروف"[27].

ويرى أن الأمر كذلك عند المحدثين، فإن منهم من كان يسرع العمل ويرتجله، ومنهم من يهذبه وينقحه، فابن جني يرى أن الشعر القديم كالشعر المحدث، ففي كل منهما المهذب المنقح، والمرتجل.

ومن القواعد النقدية التي وضعها ابن جني في قضية القدم والحداثة، قضية الاستشهاد بشعر المحدثين في المعاني، يقول: "والمحدثون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ"[28].

2- الدفاع عن الشعراء:

شمل ابن جني في دفاعه عن الشعراء، القدماء والمحدثين، فقد نظر إلى الشعر القديم على أنه حجة، حتى ولو خالف القياس، ونراه يلتمس للشعراء– في ذلك– المعاذير فهو يرى أن الشاعر القديم لا يخطئ في اللغة؛ لأنه يملكها فطرة وسليقة، يقول: "واعلم أن الشيء إذا اطرد في الاستعمال، وشذ عن القياس، فلابدّ من اتباع

السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره"[29]، ويستشهد ببيت الفرزدق:

وعَضُّ زمانٍ يَابْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المالِ إلاَّ مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفُ

حيث رفع الفرزدق (مجلف) التي من حقها النصب؛ لتستقيم له القافية، لكن ابن جني لم يقر بهذا الخطأ، بل دافع عن الفرزدق، ورأى أن ما ذهب إليه مسوّغ متبع عند العرب، يقول: "فمعني (لم يدع) – بكسر الدال – أي: لم يتدع، ولم يثبت، والجملة بعد (زمان) في موضع جر لكونها صفة له، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه، وتقديره: لم يدع فيه أو لأجله من المال إلا مسحت أو مجلف، فيرتفع (مسحت) بفعله، و(مجلف) عطف عليه، وهذا أمر ظاهر، ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ما في الرواية الأخرى"[30].

ومن مظاهر دفاع ابن جني عن الشعراء، ما يتجلى في دفاعه عن المتنبي ضدّ خصومه الكثر من النقاد، يقول إحسان عباس عنه: "ووجّه النواحي اللغوية والنحوية التي أخذت عن المتنبي، وزوّد شرحه بشواهد كثيرة؛ ليدل على الشبه بين طريقة المتنبي، وطريقة الأقدمين في التعبير، واستجاز الاستشهاد بشعر المحدثين؛ لأنه يستشهد به في المعاني، مثلما يستشهد بشعر الأقدمين في الألفاظ"[31].

ويضيف عباس أن ابن جني كان يلجأ أحيانا إلى الاعتذار عن الضعف في بعض أشعار المتنبي؛ حين يستند خصومه إلى أسباب قوية في نقده، ومن ذلك وقفته عند قول المتنبي: "و مصبوحة لبن الشائل"، فقد قال: قلت لأبي الطيب: إن الشائل لا لبن لها، وإنما التي لها بقية من لبنها هي: الشائلة، فقال: أردت الهاء وحذفتها، فيعتذر عنه ابن جني بأن مثل هذا يجوز للشاعر، فقد قال كثيِّر عزة: وأخلت بخيمات العذيب ظلالها ... أراد: العذيبة[32].

3- الضرورة الشعرية:

وهي وجود استعمالات وتراكيب تخرج عن المألوف من قواعد العربية، ونجد أن النقاد قد تعاملوا مع هذه الضرورات بشكل مختلف؛ فمنهم من يرى أنها موقف فسحة وعذر، وأن الشعراء يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من أصحاب النثر، ومن هؤلاء ابن جني، فهو من النقاد الذين أجازوا الضرورة الشعرية، بشرط أن لا تدخل الشاعر في اللحن الفاحش، يقول في الخصائص- متحدثا عن الخروج عن التراكيب المألوفة -: "ومنها لم يسمع إلا في الشعر، والشعر موضع اضطرار، وموقف اعتذار، وكثيرا ما يحرّف فيه الكلم عن أبنيته، وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله"(33).

وقد تساهل ابن جني في هذا الموضوع مع المتنبي، وأجاز له كثيرا من العبارات التي أقامها على الضرورة، في حين رفضها خصوم المتنبي المتشددون.

ويذهب ابن جني إلى أبعد من ذلك بقوله: "إن العرب قد تلزم الضرورة في الشعر في حال السعة أنساً بها، واعتيادا لها، وإعدادا لذلك عند وقت الحاجة إليها، ألا ترى إلى قوله:

قد أصبحَتْ أمُّ الخِيار تَدَّعِي   عليَّ ذَنْبًا كلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

فرفع للضرورة، ولو نصب لما كسر الوزن"(34).

ويقول: "إذا أجازوا نحو هذا ومنه بدٌّ، وعنه مندوحة، فما ظنك بهم إذا لم يجدوا منه بدلا، ولا عنه معدلا"(35).

ويرى ابن جني أن ارتكاب الشاعر للضرورات الشعرية – مع ما فيها من تعسف ومخاطرة – دليل على شجاعته، ولا تدل على قصور لغوي لديه، يقول: "فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانحراف الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جشمه منه، وإن دلّ من وجه على جوره وتعسفه، فإنه من وجه آخر

مؤذن بصياله وتخمصه، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته، ولا قصوره عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته"(36).

4- اللفظ والمعنى:

من القضايا النقدية التي كثر حولها النقاش، واختلفت آراء النقاد فيها، قضية اللفظ والمعنى. فمنهم من يقدم اللفظ، وينسب له الفضل، ومنهم من يرى أفضلية المعنى، ويقدمه على اللفظ ، وفريق ثالث سوّى بينهما؛ معتبرا الجمال فيهما معا، كبشر بن المعتمر، الذي يقول في صحيفته: "فإنما حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف"(37).

ويعتبر ابن جني من النقاد الذين اهتموا بقضية اللفظ والمعنى، فقد عقد له بابا في كتابه: الخصائص، يقول: "اعلم أن العرب كما تعنى بألفاظها، فتصلحها، وتهذبها، وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة، وبالخطب أخرى ...فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها، وأفخم قدرا في نفوسها"(38).

ونجده يدلي بدلوه في المحاورة التي جرت بين النقاد في قول الشاعر:

ولمَّا قضَينا منْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   ومسَّح بالأرْكانِ مَن هُو ماسحُ

أخَذنا بأطْرافِ الأحَاديثِ بَيْنَنَا   وسَالَتْ بأعْنَاقِ المُطِيِّ الأباطِحُ

يقول ابن جني: "ولا أرى ما رآه القوم فيه، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق"(39)، فالنقاد قبل ابن جني اعتبروا هذه الأبيات جيدة اللفظ، رديئة المعنى، لكن ابن جني ينتهي في تحليله لهذه الأبيات أن الألفاظ ما شرفت إلا لشرف المعنى.

5- السرقات الشعرية:

تفاوتت نظرة النقاد إلى السرقات الشعرية، فبعضهم تساهل في هذا الأمر، وأرجع ذلك إلى استفادة اللاحق من السابق في الأمور العامة المشتركة، أو إلى اتفاق

الخواطر والأفكار، ومنهم من تشدد في هذا الموضوع، جاعلا من كل معنى موضوع سرقة، ولو بتأوّل بعيد، وكأن للأمور الشخصية والحسد أثراً بارزاً عند القسم الثاني من النقاد.

والباحث في موضوع السرقات عند ابن جني سيجد أنه لم يكن يطلق مصطلح السرقة، ولم يصرح بهذا اللفظ، وإنما كان يعبر عنها بألفاظ وعبارات مهذبة ومنتقاة، كقوله: وكأنه نظر ...هذا معنى ... هذا كقول... إلخ.

ويرى ابن جني أن الشاعر إذا أجاد وأبدع في تقديم المعنى بصورة فنية جميلة، أفضل ممن تقدمه من الشعراء، فإنه جدير بأن ينسب إليه المعنى، ويكون المقدم فيه، وهو الأحق به، وهذا الرأي سار عليه كثير من النقاد بعده وردّدوه، كابن رشيق القيرواني الذي يقول: "غير أن المتبِع إذا تناول معنى فأجاده... فهو أولى به من مبتدعه"(40).

ومن الأمثلة على ما ذهب إليه ابن جني قوله في بيت المتنبي:

مِلْتُ إلى مَنْ كادَ بَيْنَكُما   إنْ كُنتُما السّائِلَيْنِ يَنْقَسِمُ

"كأنه خاطب صاحبيه، وذلك عادة الشعراء، يقول: قصدت هذا الممدوح يا صاحبيْ، من لو جئتما تسألانه أن ينقسم بينكما ، فيأخذ كل واحد منكما شقا منه، بذلاً من نفسه لكما، ومخافة أن يحرم منكما، وقد زاد في هذا على معنى عبد يغوث بن وقاص الحارثي في قوله:

وأَعْقُرُ لِلشَّرْبِ الكِرَامِ مَطِيَّتِي   وأَصْرَعُ بَيْنَ القَيْنَتَيْنِ رِدَائِيَا

يقول ابن جني في استحقاق المتنبي بالمعنى الذي زاد فيه: "لأن ذاك صرع رداءه، وهذا تجاوز ذلك، فقسم بينهما نفسه"(41).

6_ الصنعة:

ذهب ابن جني كغيره من النقاد إلى أهمية تعهد الكلام بالتنقيح، وضرورة ذلك، ونراه يسوق عديد الأمثلة من شعر المتنبي، في كتابه: الفَسْر[42]، يظهر فيها إعجابه بطبع المتنبي، وإحكام الصنعة عنده، من مثل قوله:

أبرَحتَ يا مَرَضَ الجُفونِ بِمُمرَضٍ　　　مَرِضَ الطَبيبُ لَهُ وَعيدَ العُوَّدُ

قال ابن جني: أبرحت: تجاوزت الحد ... ومرض الطبيب، وعيد العُوَّد: مَثَّل. ولا طبيب هناك، ولا عُوّد. وهذا كقول جميل:

رَمَتني بسَهْمٍ ريشُهُ الكُحْلُ لم يَضِرْ　　　ظواهرَ جِلْدِي وهوَ للقَلبِ جَارِحُ

يقول ابن جني: "ولا سهم هناك، ولكنه لما ذكر السهم، ذكر الريش طبعا، وإحكاما للصنعة".

7_ الهجاء المبطّن:

كان ابن جني على رأس النقاد الذين فتحوا مجال القول في أن مدائح المتنبي لكافور مبطنة بالهجاء؛ وأن الازدواج فيها كان مقصودا[43]، فكان أول من تنبه لهذه الظاهرة في شعره، والأمثلة التي تناولها ابن جني – في هذا الموضوع – كثيرة منها: قول المتنبي من قصيدة يمدح بها كافورا:

وَمَا طَرَبي لمّا رَأيْتُكَ بِدْعَةً　　　لقد كنتُ أرْجُو أنْ أرَاكَ فأطرَبُ

قال ابن جني: "لما قرأت عليه هذا البيت قلت له: أجعلت الرجل أبا زنَّة !! فضحك لذلك ... وهذا البيت وإن كان ظاهره مدحا، فإنه إلى الهزء أقرب، ومما يشكل فيلتبس، حتى يشفعه ما يبيّنه"[44].

ومثال آخر على هذا قول المتنبي:

وَأخْلاقُ كافُورٍ إذا شِئْتُ مَدْحَهُ　　　وَإنْ لم أشأْ تُملي عَليَّ وَأكْتُبُ

قال ابن جني: "وقوله: وإن لم أشأ، فيه ضرب من الهزو، وهكذا عامة شعره، وأكثر ما قاله في كافور، وقد ذكرت كثيرا منه، ففطن له"[45]، أي المتنبي.

وهذا ما أكّده محمد مندور بقوله: "والناظر في شرح ابن جني لديوان المتنبي ... يجد أن هذا الشارح الذي قرأ على المتنبي الديوان، وناقشه في معانيه، وأخذ عنه شروحه، قد جنح دائما إلى تخريج مدح المتنبي في كافور مخرج الهجاء المستتر المقلوب"[46].

ويرى محمد مندور أن ابن جني قد بالغ في إخراج كثير من مدح المتنبي لكافور إلى الهجاء، وأن هذا الأمر قد يكون بإيعاز من المتنبي، بعد أن فسدت علاقته مع كافور، صحيح أن بعض الأبيات كانت واضحة في إظهار الحالة النفسية للمتنبي تجاه كافور، ولكن هذا الأمر لا ينطبق على كثير من هذا المدح[47].

وقريب من الهجاء المبطن – الذي يكثر في مدائح المتنبي لكافور – نجد اكتشافابن جني للجرأة النفسية لدى المتنبي، وجسارته على ذكر أشياء في ممدوحه، لا تقبل لولا حسن استعمال صاحبها. كقوله في أخت سيف الدولة:

يَعلَمْنَ حينَ تُحَيّا حُسْنَ مَبسَمِهَا   وَلَيسَ يَعلَمُ إلاّ الله بالشَّنَبِ

وقوله في أبي شجاع فاتك يمدحه:

وَقَدْ يُلَقّبُهُ المَجْنُونَ حَاسِدُهُ   إذا اختَلَطْنَ وَبَعضُ العقلِ عُقّالُ

يقول ابن جني: "أفلا ترى كيف ذكر لقبه على قبحه وتلقاه، وسلم أحسن سلامة"[48].

خاتمة

بعد هذا البحث الموجز في موضوع مفهوم الشعر عند النقاد اللغويين، ابن جني أنموذجًا، نصل إلى العديد من النتائج، والتي يمكن أن تتلخص في النقاط الآتية:

1- أن ابن جني كان عالما موسوعيا، وناقدا موهوبا، وهذا ما يحتاجه الناقد.

2- أن شرح ابن جني لشعر المتنبي ونقده، كان مرجع اللاحقين من بعده، الذين تناولوا شعر المتنبي بالنقد، وأثاروا معارضات كثيرة؛ حيث يمكننا القول: إن ابن

جني كان مصدر فهم شعر المتنبي، الذي لم يكن من السهل فهمه، وتنسب إليه الأسبقية في اكتشاف الهجاء المبطن والجرأة النفسية عند المتنبي.

3- حاول ابن جني أن يكون ناقدا موضوعيا، وأراه نجح في ذلك إلى حد كبير؛ فهو – مثلًا – لا يتعصب لمذهبه البصري، ولا لشاعر معين، ولا يذكر مصطلح السرقة، عند الكلام على السرقات الشعرية، وإنما يستعمل ألفاظًا مهذبة، ولا يتعصب لقديم أو محدث.

4- أن من المآخذ عليه كون شروحه مثقلة بالشواهد، التي يستدل بها على المسائل اللغوية والنحوية التي يثيرها، وأنه يلتمس المعاني البعيدة، دون المعاني القريبة المباشرة.

الهوامش

(1) نقد الشعر في القرن الرابع الهجري 75.
(2) ينظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت 81/12 وما بعدها، وبغية الوعاة 132/2، وإنباه الرواة 335/2، ووفيات الأعيان 246/3.
(3) المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة 22 وما بعدها.
(4) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة 202.
(5) ينظر الفسر تحقيق رضا رجب 156/1.
(6) نفسه 156/1.
(7) معجم الأدباء 83/12 وما بعدها.
(8) يتيمة الدهر 124/1.
(9) مقدمة كتاب التبيان للعكبريً ص ج.
(10) وفيات الأعيان، ابن خلكان 246/3.
(11) يتيمة الدهر 124/1 .
(12) بغية الوعاة 132/2.
(13) النقد المنهجي عند العرب 244 .
(14) ينظر معجم الأدباء 102/12، بغية الوعاة 132/2.
(15) ينظر: التبريزي . شروح سقط الزند 4/1.
(16) الفسر 346/1 .
(17) ينظر:تاريخ النقد الأدبي عند العرب 279.
(18) نفسه 284 وما بعدها.
(19) نفسه 287.
(20) ينظر: نفسه 288.
(21) ينظر: الواضح في مشكلات شعر المتنبي، 29 وما بعدها.
(22) ينظر: النقد المنهجي عند العرب، 234 وما بعدها
(23) شرح الواحدي 4.
(24) المثل السائر 108/2.

(25) النقد المنهجي عند العرب، 234،235،239.
(26) الفسر 1/32
(27) الخصائص 1/327.
(28) الفسر 1/173
(29) الخصائص 1/99 .
(30) نفسه 1/ 99، 100.
(31) تاريخ النقد الأدبي 280 .
(32) ينظر نفسه 280،281 .
(33) الخصائص 3/188.
(34) نفسه 3/303، 304.
(35) نفسه 3/ 60،61.
(36) نفسه 2/ 392.
(37) البيان والتبيين 1/ 136.
(38) الخصائص 1/215.
(39) نفسه 1/218.
(40) العمدة لابن رشيق، 2/290.
(41) الفتح الوهبي 150 وما بعدها .
(42) ينظر : الفَسْر 1/24 وما بعدها، 2/327 وما بعدها.
(43) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي 281 .
(44) الفسر 2/41.
(45) نفسه 2/29.
(46) النقد المنهجي عند العرب 181 .
(47) ينظر: نفسه، 240 وما بعدها
(48) ينظر : تاريخ النقد الأدبي ، إحسان عباس ، 282 .

المصــادر والمراجع

1- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين القفطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، مصورة عن الأولى، دار الكتب القومية، القاهرة 2005م.
2- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار الفكر، 1979م.
3- البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، ط 2، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد.
4- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط 1، 1981م.
5- التبيان في شرح الديوان، لأبي البقاء العكبري، تح مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، 1971م.
6- الخصائص، لأبي الفتح ابن جني، تح: محمد علي النجار، ط 2، دار الهدى، بيروت – لبنان.
7- ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي الفتح ابن جني، المسمى: الفَسْر، تح: صفاء خلوصي، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، ط 1، 1988م.
8- شرح ديوان المتنبي للواحدي، تح: فريدرخ ديتريصي، طبع في برلين سنة 1861م.
9- شروح سقط الزند، لأبي زكريا التبريزي، تح: مصطفى السقا وآخرون، ط 3، مصورة عن نسخة دار الكتب 1945م.
10- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط 2، مطبعة السعادة.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 6, Dec. 2016

Published on Web 01/12/2016

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة,ليبيا، المجلد الثاني ـ العدد السادس، ديسمبر 2016م

11- الفتح الوهبي على مشكلات شعر المتنبي، لابن جني، تح: محسن غياض، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1990م.

12- الفَسْر، شرح ابن جني الكبير، على ديوان المتنبي، تح: رضا رجب، ط 1، دار الينابيع، دمشق، 2004م.

13- المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، لابن جني، تح: مروان العطية، وشيخ الراشد، ط 1، دار الهجرة، بيروت، 1988م.

14- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تح: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط 2.

15- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان.

16- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، محمد الطنطاوي، ط 2، دار المعارف.

17- نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، قاسم المومني، دار الثقافة، القاهرة.

18- النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة.

19- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر.

20- الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني، تح: الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، 1968م.

21- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط 2، مطبعة السعادة.